



تراث

## مُتَّهِّمَاتُ القراءة الحداثية للنُّصُ التراثي

بقلم: د.أحمد عيساوي

### منهج الحداثة ومحاولات التمدد



وتقاماتها التراثية والتاريخية والحضارية. ولم تكن عملية الهضم الاصطناعية لإيداعات الآخر المغاير خطيرة على مفكري هذه التيارات، بقدر ما كان ضروراً جسماً وهي تحاول حرارة أبعاد الذات الراهنة والتاريخية - المقدسة والتراثية - بهذه الطروحات والصيغ التعسفية، التي سببت إفرازاً الكثير من التناقضات والقراءات الخاطئة للذات الراهنة والتاريخية معاً.

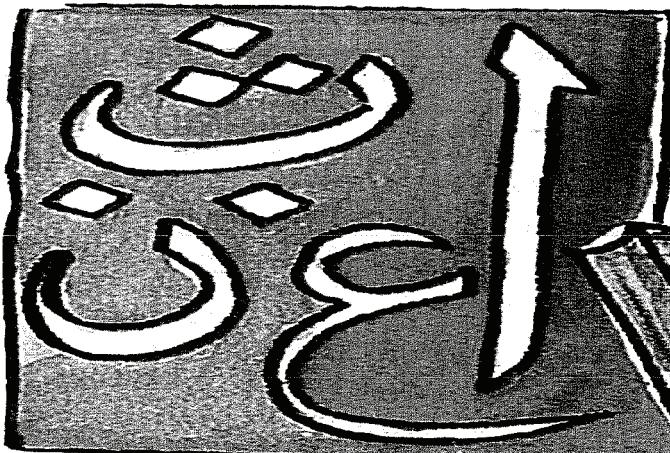
وانطلق مفكرو هذه التيارات - بعد حال التشبيع والتغذية الاصطناعية الحديثة - مباشرة نحو دوائر المقدس - القرآن والسنة - و نحو دوائر التراثي في الذات التاريخية والراهنة، يعيشون فيها - بدعاوى الحداثة - خلطاً وتذريراً وتحليلاً بأدوات منهج الحداثة «التحليل، التحرر، التفكيل»، التشكيل»، الذي لا يبعد كونه توليداً وتوسيعاً ومزجاً جديداً لسائر الطروحات المادية الماضوية للفكر الوثني الخرافي والوضعي معاً.

ومع هذه الجسارة المعهودة لفكري هذه التيارات - قراءة وتحليلـ نحو دوائر المقدس والتراثي، و نحو الذات الراهنة والحضارية، فقد وقعوا

وأوقعوا المشهد الفكري والثقافي في مُتَّهِّمَاتٍ متعددة، ثات بهم بعيداً عن فهم واستكناه أبعاد النص المقدس والتراثي الحقيقة، كما نأت بهم - على أقل تقدير - عن إحداث بعض المقاربات المنطقية والعلمية الرائشة للتعامل مع تلك الدوائر، مما سبب لهم - كممثلين غير شرعين - طروحات الآخر المغاير - ولذات حالات من التبليل والفووضى المنهجية والمعرفية في التعامل مع معطيات الراهن الواقع،

وقد سارع مفكرو هذه التيارات لاحتضان منهج الحداثة الغربي والتبليل له في أعلى وأوسع وأعرق المنابر الثقافية والأدبية والفكرية في العالم العربي والإسلامي، الأكاديمية الرسمية والمستقلة. كما سارعوا أيضاً - تحت تأثير حالات الخواص المنهجي والمعرفي المكشوفة - لدورته وإسقاطه على الواقعين العربي والإسلامي في شتى مجالات الفضاءات الإبداعية والثقافية والأدبية والفنية، بقصد إعادة صياغة وتشكيل أبعاد ورؤى المشهد الفكري والثقافي والأدبي والفنى، الذي كاد يفلت منهم كلية لصالح تيار الأصالة المحلي.

ومع هذه الارتماء المكشوفة لطروحات ونظريات الآخر المغاير من قبل هذه الفحشائل الفكرية والثقافية الرسمية وغير الرسمية، تمت أخطر عمليات التعامل مع الذات الراهنة، ومع الذات في أبعادها التاريخية المقدسة وغير المقدسة، ومع الذات



ومع تراكمات التراثي التاريخي أيضاً، كما سببت أيضاً نوعاً من الإيجاب والتبايل لدى فصيل المتقفين التابعين لنطروات الشهد الشفافي والمتلقين ل弋اعاته والمتطبعين لإشرافاته الحرية المستقبلية.

وبسبب الفوضى - في اعتقادى - التي حدثت على الساحة الفكرية والثقافية والأدبية والفنية... العربية والإسلامية، كان يفعل مجموعة من العوامل المختلفة التاريخية والواقعية، ولعل أهمها يعود إلى نوعية ولون وتجه الطبقة الفكرية والثقافية والأدبية والفنية المسؤولة عن تشكيل وتلوين وتحريك المشهد الثقافي في العالم العربي والإسلامي، ذات التوجه المتماهي والمتوابى والخجل مع الذات، والمتباھي والمرتّبى والمعجب بآيدىعات الآخر المغایر الوثني والوضعى من جهة.

ومع نخب الممثلين المستغربين وغير الشرعيين، المتحكمين في دوليب السلطة ورقب الشعب العريب والإسلامية، واليابسرين تقودهم بفعل القوى الخفية والخارجية التي تقدم بالعنوان والقوة والسلطان، بهدف استكمال مسيرة التغريب الواقعية من جهة ثانية.

ومن هنا انطلقت هذه التيارات تقدم قراءاتها وفهماتها للذات بتأييدها الراهن والتاريخي والحضاري، والمقدس والتراشى، بادوات من نوع الحدائق، الذي لا يعترف بقدسية أى مقدس، بل يدعى إلى إلغائه ونسبياته، والتعامل معه كغيره من غير قدسيّة، كما يدعى للقفز على التراكم التراشى الحضاري وتجاوزه إلى الحقيقة الوثنية السابقة له، كمتقدح حقيقي من واقع التخلف الذي عليه راهن العالمين العريب والإسلامي، بحسب زعم تكثير الحداثيين.

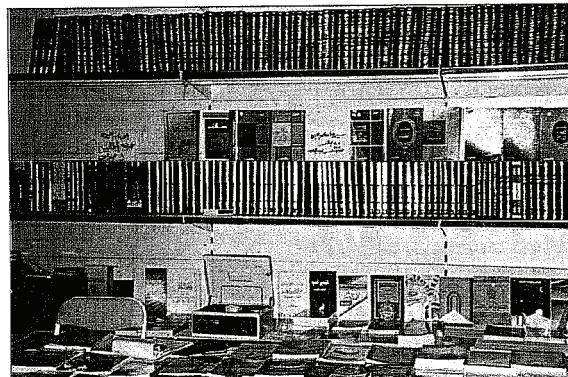
ومن هنا فقد وقع هؤلاء المفكرون في الكثير من **المُتَّهِمَاتِ** الفكرية والمنهجية والمعرفية والاصطلاحية واللغوية والوجودانية، كما أوقعوا فصيل المتقفين المعجبين بطرورياتهم في الكثير من المذاهب، وكما تسببو في مأسى تردي عالم الایداع المختلفة، وفي الفوضى التي تعشش الأن في القضايا الثقافية والفنية والأدبية والفكرية في العالمين العربى والإسلامى.

وقد أمكن تحديد أهم المتهيات التي نات بھؤلاء المفكرين عن القراءة السوية للذات والراهن والماضى، وأوقعتهم في القراءات والتحليلات المرضية والخطاطنة، التي يمكننا إجمالها فيما يلى:

### **المتيه المعرفية**

من المعلوم جدلاً أن لكل منظومة فكرية أنساقها المعرفية الخاصة بها، تمثل لها الخطوط والمعالج الكبرى للتعامل مع سائر الحقائق والنظريات والافتراضات المعرفية، إن فى داخلها أو مع غيرها من المنظومات المعرفية الأخرى، كما تحدد لها أيضاً طرق وكيفيات التعامل والتفاعل مع مختلف الأنساق المعرفية الذاتية والغربية.

وبهذه الأساس المعرفية يمكن



للمتنمي لأى مدرسة فكرية أن يشكل طريقة تفكيره وتحصيله وتحليله واستنتاجه، وأن يصوغ منهجه الفكري والمعرفي في بورة معارفه وقناعاته وفقهه أيضاً، متسبعاً - بالدرجة الأولى - بكل كلياتها وجزئياتها، مع إضافات فكرية و مجرقية - فجائية أو متأتية - تحصل لدیه خلال تعامله مع المنظومة الفكرية الذاتية، أو في أثناء التعامل مع المنظومة الفكرية لآخر المغاير، بحكم عوامل التأثير والتاثير في التكوينة الفكرية والمعرفية للذات المفكرة عموماً، وهذا أمر مقبول ومعترف به فكرياً ومعرفياً، إذا كان دافعه الرئيس السير والإرتهان للحقيقة الأقوى والأوجه ظرياً وعملياً وواقعاً، شرط أن يتم وان يكن التعامل مع الآخر المغاير ومنظومته الفكرية والمعرفية بمنطق التبعية للحقيقة المطلقة إن وجدت عنده، لا العكس.

وعلى هذا الأساس العلمي التزيم والموضوعي أيضاً يتم الانطلاق المعرفي والفكري الحر نحو المنظومات الفكرية والمعرفية لآخر، بهدف تحقيق جملة من الأهداف والغايات للذات ولآخر معاً، وهو ما تسعى إليه الدارس الفكرية المتطلع لمعرفة الحقيقة المطلقة.

ولو تمت - حسب قراءاتي المتواضعة - سائر العمليات الفكرية والمعرفية باتجاه المنظومة الفكرية والمعرفية لآخر خلال مسيرة الحضارة الإنسانية لكان التطوير الذي عرفته البشرية مذهلاً، ولكن - للأسف - فإن سائر عمليات الانطلاق نحو منظومة الآخر الفكرية لم تكن لتتم بمثل هذه الأمثليات النظرية، التي هي مجرد طموحات طوباوية ومتالية لدى المفكر العربى والسلام، وقناة مخلصة ومتيبة وغير ممكنة التطبيق لدى غيره من المفكرين.

إذ إنجرى مفكرو التيارات اليسارية والقومية والعلمانية والوطنية، الخطية والغيرية... مع مطلع القرن الماضى إلى قراءة فكرية ومعرفية للذات الراهنة والتاريخية بمحضات وضوابط غربية عن الواقع التكري لها، وعاجزة عن فهم الذات، فضلاً عن أن تحقق أمنية فهم الآخر أيضاً.

كما انطلقت تلك التيارات نحو التأثيرات بمقومات ومحددات معرفية وفكيرية غريبة المنشأ والأصل والجنون، مما اضطربها - تحت تأثير التمرد على المكون التراقي والراهن - إلى التسرع في إصدار الأحكام الت Tessifية الجائرة على التراكم الحضاري للذات، وتحميل الراهن الآليم مخلفات ونتائج التاريخ الحضاري، ومن ثم فقد انطلق مفكرو هذه التيارات عبر الذات من خلال أدوات الآخر، ما جعلهم يجرون في الحكم على الذات وظلمها، والتنكر لها والشدة عليها، بمحاولات التبرير منها، والطالع لما عند الآخر بهدف تحقيق النهوض من التعرّض والتخلّف، وبذلك وقع مثل هؤلاء المفكرين في المتيه المعرفية والفكيرية، التي لم ولن توصلهم إلى أي شيء في فهم الذات الراهنة والتاريخية، وفي الحكم عليها، وفي تحريرها والتحرر من شأنها، وفي احترام وتعظيم الآخر - المغاير لها تماماً - قابليها.

وبذلك فقد شكلت المتيه المعرفية

**يمكن للمتنمي لأى مدرسة فكرية له أن يشكل طريقة تفكيره وتحصيله وتحليله**



تراث

## موقف المصطلح في صراع الحضارات

د. احمد كروم. كلية الآداب. أغادير. المغرب

قد يُقال: لا حضارة من دون قاموس ولا قاموس من دون مصطلحات، وكان المصطلح كائن بكونه الحضارة وذاته. فالمصطلحات تحفي كما يحيى الناس وتشيخ كما يشيخون وتموت كما يموتون، ومن المفارقات العجيبة أن نجد للمصطلح ميزته الرسوم والتبدل، وهو الوصف الذي يعطيه شحنة تاريخية لا تنسى عند شعوب الحضارات، فكم من مصطلحات ألغت سامعها عن سرد تاريخي لحضارة عريقة ذات موقف وبطولات، فلم يبق من رسماها إلا أطلال مصطلحات تهدى السامع في أغلب الأحيان إلى ماضٍ أسطوري. وما زال هذا التصور وسيظل يثير حروباً ملونة الأشكال تارة سياسية، وأخرى إعلامية تعترفها حالات نفسية وتشنجات هستيرية، ولا أدل على ذلك، من أن الشعوب قد ترجمت هذه المصطلحات إلى قضاياها الاحتجاجية وتعبراتها الباطنية في شكل شعارات عالمية تحمل من الرسائل ما توقظ به الأذهان، وتستذكر به أحداث الماضي، فعندما يريد بلد ما تقبلاً سيرته الديموقراطية في إطار الحقوق والمعارف الدولية الإنسانية النبيلة، يبحث عن الأنماط المخالف الذي يظهر من خلاله الوجه اللامع لديموقراطيته وينبع الآخر بالمصطلحات الملوثة التي تحول الحقوق إلى عقوبة، والإنسانية إلى وحشية... ويظهر بداعاه من ذلك أن هناك مصطلحات للشعوب الغالية تناقض التي تتبعها الشعوب المقهورة.

والفكرة المستوردة والغربية - المنشأ والأدوات - أحد مدخلات ومتغيرات القراءة الوضعية للذات، بعد أن ظن أصحابها - وهو يقتربون من تيار إلى تيار ومن مذهب فكري إلى آخر - بأنها ستشكل لهم أحد معالم الاعتداء والنهاية الحضاري.

### المتباعدة المنهجية

المنهج طريقة وأسلوب في النظر العقلي لخالق القضايا الحياتية، وتتميز كل منظومة فكرية عن غيرها بمدى أصالتها منهجهما وقدرته الدقيقة والصائبة للوصول إلى الحقيقة المرجوة معرفياً وعلمياً، ولعل المنهج النابع من داخل سياقات النظومة المعرفية نفسها يكون أقدر - بلا شك - من المنهج المستورد من خارجها لغرض فهمها وتحليلها وتطويرها، وهذا الحكم يصدقه ويؤكده الواقع المعرفي الذي يتبناه وسارت عليه الثقافة العربية الإسلامية خلال القرون الحضارية الماضية، إلى أن جاء عصر الاحتلال بالغرب، الذي يسميه تيار المستعربين العرب بعصر التوسيع العربي، أو فجر البعث والميبلطة العربية وذلك مع نهاية الحملة الفرنسية على مصر سنوات (١٧٩٨ - ١٨٠١) ومطلع القرن التاسع عشر وقيام دولة محمد علي باشا في مصر سنة ١٨٠٥م.

ومعه بدأت عمليات الاستيراد العشوائية لمختلف التيارات والمذاهب والنزاعات والمناهج... ترى على الفكر العربي، وتقدم بشكل تعسفي للتعامل مع التراث المقدس وغير المقدس، ومع الراهن بكل أبعاده. فمن كلاسيكية يونانية ورومانية لاتينية قيمة، إلى رومانسية ثورية حلة، إلى عقلانية بيكاتورية شكلية جادة، إلى عقلانية هيجلية مادية، إلى عقلانية نيتلية مجونة لا عقلانية، فإلى واقعية طبيعية مشائكة، وإلى عبئية ساخرة وإلى سريالية متماهية، إلى رجوية سارتيرية متوقرة، إلى عدمية تشيكالية غامضة، إلى تكعيبة فوضوية قاتمة، إلى بنية جذانية تذكرة متماملة، وصولاً إلى حداثية إغاثية انتاتية جائرة... ظل الفكر العربي أسريراً لها ولنهاجها ولسلبياتها قردين من الزمان، منذ أن بدأنا فجر النهضة مع اليابان في منتصف القرن التاسع عشر.

وقد أفضت المتباعدة المنهجية التي ظل الفكر العربي أسريراً لها طيلة القرن الماضي إلى تورم مجموعة من المتباهات الأخرى لدى فصائل الفكرين العرب العلمانيين وغيرهم، فاستغلت فيهم المتباهة الوجودانية واللغوية والاصطلاحية، وصاروا يحللون ويدرسون ويعبرون ويصطاحون وينتفون ويكتبون ويقرأون التراث والراهن معاً بكل غريب مستورد عن وجودياتهم الفكرية والتاريخية، ومن هنا تاهوا في متباهات نأت بهم عن تطوير منظومتهم المعرفية العربية الإسلامية تطويراً متميزاً، ينتهي من فتوحات وعطاءات الآخر الجيدة والمناسبة له.

### الحدثة وما بعدها وخرافة النهايات

وقد أفضت بهم هذه المتباهات إلى الترديد البيغاني لخرافة النهايات والصادمات الحضارية التي ألقى بها مفكرو الحداثة، معلنين في قرن العولمة نهاية الأذيان إلا المسيحية والميهودية، ونهاية التاريخ إلا التاريخ الغربي، ونهاية اللغات إلا اللغات التسلطية العالمية، ونهاية الحضارات إلا الحضارة والمدنية الغربية، ونهاية الدولة إلا الدولة الغربية، ونهاية المثقف والعقل إلا العقل والمثقف الغربي، ونهاية عصر المال والوظيفية والمهنة... وصدق فيما توشم رسول الله صلى الله عليه وسلم المستقبلي حين قال: «والله لودخلوا جهنّم ضب لدخلتموه».